السعادة الذابلة

للكاتب المصصى جوزيف كسل
للأديب صلاح الدين المنجد

كنت وأنا فى بسمة العمر ونضرة الشباب ، أقضى الليالى بين أتباع القيصر ممن تخلى عنهم الحظ فتركوا موسكو فارين من عسف الثورة وجور القادة، يحملون بين شغاف القلب لهفة على الحظ الآفل ، وحنيناً إلى الربع الآهل ، وأسى لذاك العهد السعيد

ما أدرى ما الذى كان يحبّب إلى هذا الصحب الذى صرعته الخمر ، وسبت عقله الشهوة ، وأنهكته البلايا ... وإن كان يستهوينى منه لباسه القوقازى الجميل ، المفعم بالألوان المشرقة ، الذى ينعكس جماله على لمس الشفاه الذابلة عند الغوانى ، وضلال النظرات فى الرجال، ويطربنى بشرته أنغامه المطربة، ورقصه الضاحك، وحركاته المتوحشة ، التى كانت تملك على أسرى ، وتدفعنى إلى البقاء معه أبداً ...

لقد كنت أشعر ، كلما تمثل فى خاطرى مصيرهم الباكى ، كأن دمى قد نضب وغاض ؛ فأرثى لحالهم ، وأبقى إلى جانبهم ، أسرى عنهم ما يشجيهم مذ هجروا الأوطان . فأمضى وقد تنبه الليل ، هائماً على وجهى فى طرقات باريز الحالمة ، أستمع إلى أنين العذارى وعربدة الفتيات ...

لقد علمت من أقاصيصهم كل عجيب ، وسمعت من أحاديثهم كل طلى ، ونظرت إلى رعابيبهم نظرة الرحمة من خلل الدامع . . . أولئك الشقر النواعم واللائى احترفن الرقص والغناء بعد أن ذقن الهناء وتمرغن فى أحضان النعيم ...

يا رحمتاه لمن ... ! أكتب عليهن الشقاء فى هذه الحانات الباريسية الضاحكة للذة ، الغارقة فى الفجور ... ؟ يجالسن السكارى والمعربدين ، ويحدثنهم عن أنباء حياتهن وأقاصيص بلادهن ، وطرائف مغامراتهن ، عند ما كان العيش غضاً والزمان غلاماً ... ! حتى إذا ما هرم الليل ، قمن نشاوى من السكر متعبات من الكلام ، ليرتمين فوق فرش الحرير ... !

إن اعترافاتهن لشجية ، ما كنت لأرتوى منها أو أمل . . . كنت أستمع من تلك الشفاه الرقيقة أحاديث لذة تصور لى الامبراطورية الخالية ، فى نعيمها وبؤسها ، وظلمها وجورها ، وتمثل لى أيام الارهاب ولياليه المترعة بالحب ، المفعمة بالدماء ...

لقد فقدن الكبرياء ... وصدف عنهن العز ... وما أحوجهن إلى نديم يسألهن ويستطلع دخائل قلوبهن ...

إيه باريس ... ! كم سمعت فى زوايا شوارعك ... أمام موائد الخمر التى غمرت بروائح التبغ والعطر ... أحاديث البؤساء ، وكلام التعساء ... التى ترقص بين كلماتها أشباح القوة العابسة ، والظلم القاهر ، والموت الرهيب

حنانيك قارئى ! ماذا تريد أن أسمعك ؟ أقصة ذلك الأمير القوقازى ، الذى أحب الحرب وعشق البطولة ... ومات بعيداً عن صهيل الخيل ... فى أحضان حبيبته ؟ أم قصة تلك الراقصة التى صرعتها

نظرات راسبوتين الملتهبة ، وأغوتها جنته الزاهية ؟ أم قصة رئيس الوشاة عند القيصر ومغامراته اللاهية ... ؟ ما أدري عم أحدثك ... وهل أستطيع يا ترى أن أكتب كل ذلك دون أن أفقده روعته وجماله ... ؟ ما أدري ... ما أدري ... !

تعيسات أنتن يا غوانى الحانات ... ! أنا أشفق عليكن ... وأبكى لكن ... تدفعن دائماً رواد كن لأن يتجرعوا كؤوس الخمر وأكواب الشمبانيا لتلذذهن بمرآهم ... ألا بئس العيش وبئس المصير !

إستمع إلى يا قارئى ... فقد أطلت ...

* * *

كانت فيرا بتروفنا جميلة جمال الورد الرفاف بالندى عند الصباح . أصابها داء القلب أيام المسغبة والارهاب فى روسيا ، فاضطرها إلى الاخلاد للهدوء والراحة ... وكنا جلوساً حول مائدة رأستها ، وأخذت تعمل كل ما أتقنته مذ كانت بنت عشر وثلاث ، لتدخل الفرح إلى نفوسنا ، والطرب إلى رؤوسنا . وكان شيطانها يوحى لها ما يسر الخاطر ويبهج القلب ، فكانت تبتسم بفمها وتغمز بعينها ، وترسل الغناء من ثغرها ... متدفقاً حتى لتحسب أنه قطع من نفسها تجود بها وهى تضحك وتلهو

وكان يفيض من وجهها حزن بائس جميل . فيغمرها السحر وتحيط بها الفتنة وترسل من عينيها نظرات كلها إغراء وحنان . ويتكلم جسمها بحركاته العابثة الرخوة فتزهف الأفئدة ، وتسلب العقول ، وهى نشوى من الفرح ، سكرى من الفجر . فهذه لحظات نادرة . ولن ترانا كل يوم .

قلت لى بصوت حزين :

— إنك ترثي لى ياسيدى . ولن تستطيع ، مهما فعلت ، أن تخفى هذه الشفقة التى لا تبدو فى نظراتك ، وتفيض من كلماتك . إن عيشى لمر ، ولكنه ناعم هنيء . آه لو رأيتنى قبل عشر سنين ! إذن لأنكرتنى ، ولما عرفتنى . ربما دلنك على شعورى البيض الذهبية التى لم تتبدل فى . نعم . أما جسمى ووجهى فيالأسفا عليهما ، لقد تبدلا ... وغاض جمالى وتولت فتنتى . أواه ياسيدى أواه ! كنت أغنى وأنا طفلة غضة ، فاذا تعبت وملت ، وأثملنى الكرى ، أيقظتنى أمى بصفعة على وجهى ، وبجرعة من الفودكا وبلفافة من التبغ .

لقد حدثتك عن زوجى كثيراً حتى غدوت أخشى أن تمل . ولكن ماذا أفعل . أنا أحبه حب المرضات لأطفالهن . أواه ، ما أشوقنى إلى عهده ، لقد كان من أبناء الأشراف الذين ملكوا الثروة والجاه ، فتزوج منى وأنا جاهلة خاملة .. حتى إذا ما فقد السلطان وأضاع الثروة جاء يبكى بين يدى يطلب الرحمة والغفران . !

لا شيء يبدل عيش الفتاة كنظرات الرجل يسددها إلى عينيها فيغريها . لقد كانت نظراته حالمة ماؤها العطف والحنان ... إنها لم تخلق لترى الحياة ، بل لتشهد أشياء أعذب وأحلى .. لتشهد الحب ولياليه . !

لقد بدأ الهرم يدب إلى على الرغم من شبابى الفض مذ غابت عنى تلك النظرات. لك الله يا زوجى! لقد أوثقوه فى السجن ، لأنه من أبناء الأشراف . ولأنه لم يعرف من الدنيا سوى الموسيقى وزوجته فيرا. كان يعزف فأغني وأرقص . إنه نبيل ياسيدى ، ومثل هذه الخلة تكفيه ليودع فى السجن .

كان أملى فى إرجاع الحرية له واسعاً سعة البحر

العميق . ولكني شعرت بأنني وحيدة لا يرعاني أحد وما كنت لأخاف على نفسي من شر أولئك البولشفيين . فلقد كانوا في أحرج أوقات الارهاب يتهافتون علينا تهافت الذباب على الحلوى . تلك خلتهم ... إنهم يعبدون المرأة . لقد استطاعوا أن يسيئوا إلى كل إنسان ، ولكنهم لم يسيئوا إلينا أبداً .

وبدأت أحس الجوع وأشعر بالبرد يأكل من جسمي ، ولكني لم آبه لهما ، فأنا ابنة قوم علمهم الشقاء والطواف حول الأرض الصبر على الخطوب

وكنت أتنقل بين الأندية والحانات أغني للعمال ، فأعطي قليلاً من الدقيق والسمك والبطاطس . ولم أطلب المزيد وحولي آلاف النسوة يبكين من الجوع ويقضين من القر .

ما أستطيع أن أصف لكم ياسادتي ما كانت عليه روسيا في شتاء ١٩٢٠ . لقد كان الجوع يهلك الأجسام ويوهن القوى ، وكان شبح الموت يرقص فوق رأس كل إنسان ، في تلك الشوارع المغطاة بالثلج التي لا تسمع فيها نأمة ولا حركة ولا ضحكة . كل شيء هادىء فيها يمثل العدم والفناء . آه ! ما أدري أترتسم في مخيلتكم مدينة لا يضحك فيها أحد أبداً

وكان الارهاب قد بلغ أوجه ، فأصبحت مقادير الناس بين يدي أولئك ، كانوا يقتلون الحريات .. ويقتلون النفوس . وعصفت العصبية في رؤوسهم فأضحت السجون مقابر والمقابر سجوناً . كانت موسكو آنئذ مملوءة بالوحوش المتبلدين الذين فقدوا الشعور ونسوا عذاب الضمير ! ..؟

بماذا أحدثك .. إستمع إلي :

كان ذلك بعد أن فقدت فاسيلي بأسبوعين .

كنت في طريقي إلى الدار ، وكان الليل قد أظلم ، وأوحشت الأزقة والشوارع ، واستولت عليها رهبة الموت ، فرأيت شبحاً هزيلاً يتبعني حتى إذا ما كدت أصل إلي داري ، هجم علي .. وأمسك بيدي .

لم أستطع أن أتبينه ... ولم أشعر بخوف أو وجل ... إنها امرأة ... ربما كانت فقيرة سغبى تطلب ما تأكل ... أو مجنونة أفقدها الجوع عقلها

وتلفتت يمنة ويسرة ، ثم قادتني إلى ثغرة في أحد الجدر تراكم فيها الثلج ، ثم ضغطت على يدي وقالت بصوت متهدج :

— فيرا ... فيرا ... يا حسنائي ... هل تعرفينني .. ؟

فأرعبني صوتها الخافت ، واعترتني رجفة خفيفة ... إنها تكلمني بلغة قبيلتي النورية ، التي كنت أسمعها وأنا بين المضارب والخيام

لقد نسيت تلك اللغة ... ولم يبق منها في رأسي إلا ذكريات ، فشعرت كأن قسماً من عمري قد امحى ، وأن زوجي .. وأيامه الغر ، ولياليه الطيبة ، وبذخه وترفه .. كل ذلك قد انتهى ، وتخيلت عهد طفولتي إذ كنت نورية صغيرة لا ملجأ لي ولا مال .. أطيع الشيوخ وتسيطر علي النساء

وهمست العجوز في أذني :

— فيرا ... ! ما بك ... أنا ماريا .. عمتك ..

ماريا ... عمتي ... الآن فهمت ... لقد كانت مولدة للنساء ، ونائحة على الأموات ، وخادمة في الدور ... يا لله ... إنها بلغت من الكبر عتياً ، وما تزال كما عرفتها يوم عرفت الدنيا . لقد باعتني مع أمي .. ثم سرقتني .. ثم هيأت لي أسباب العيش بعد ذلك مع زوجي ...

وربتت على كتفى وقالت :

— فيرا . . . يا حسنائى . . . غداً فى الساعة التاسعة . . . سأنتظرك فى عربة تقف على مائة قدم من دارك . . . على جهة اليمين مما يلى الطريق . . . إياك . . . أن تتركى الفرصة تمضى . . . ستساعدين زوجك . . .

ثم تركتنى واختفت فى الظلام

وفى مساء الغد . . . خرجت من دارى أمشى وأنا أعد الخطى . . . وأعلل نفسى برجل أبتز منه دراهمه بعد أن أسقيه العذاب . . . إن عمتى علمتنى كيف أعذب الرجال

ووجدتها فى عربة عتيقة .. فصعدت إليها .. ثم انطلق الحوذى فى طريقه لايتلفت إلينا . وأخذت العجوز تكلمنى .. ثم لمست صدرى وقالت :

— وهذا الفراء الناعم يا فيرا . . . ألا تشعرين بنعومته ؟

فارتعشت من قولها ، وقلت لها :

— إلى أين تقودينى يا عمتاه .. إن لم تتكلمى فسأرى بنفسى .. هيا .. هيا ..

فراحت تداعبنى وتمر يدها اليابسة المرتجفة على عنق البض .. ثم ضحكت وقالت :

أأعمتك السعادة يا فيرا حتى غدوت ما تعرفين طريق قبيلتك ؟ آه منكن يا صبايا النور . . !

فصمت .. وأغمضت عينى ، وأنصت إلى صوت السجلات .. فوق الثلج المتجمد .. ثم وقفت العربة ونزلت منها إلى مرابع طفولتى

* * *

ما أجملك يا أرض قبيلتى !

لقد كنت قيثارة أوتارها النساء . . . وكنت لا تعرفين إلا المرح والغناء ، وكان كل ما فيك يمثل الحياة ويبعد معنى الفناء . . . هنا أصوات عذبة تشدو . . . وهنا فتيات نواهد يرقصن ... وهناك حلقات الأقاصيص والسحر ... وإلى جانبها تهرق أكواب الفودكا وكؤوس الخمر .. نعم كانت أرض قبيلتى مرتعاً للجمال واللهو والشعر !

يا حسرتا عليك يا أرض قبيلتى ! ... ماذا أرى الآن فى جنباتك ؟ ... فارقتك النوائى فأوحشت ، واختفت أنغامك فهجرت ، وتهدمت دورك ، فأقفرت ... شد ما يحزن المرء يا سيدى عند ما يرى وطنه تعدو عليه العوادى وترهقه المحن فيغدو يباباً بلقعاً ...! إنه ليحزن ، لأنه قطع منا ، ولأننا قطع منه . وياليت شعرى هل يستطيع المرء أن يدع قطعة من جسمه . ما أدرى إن كانت أيامك الزهر ، يا أرض قبيلتى ، ستعود إليك ... وهيهات أن أراك كما تركتك ...! لقد تفرقت حسانك بين جنات استنبول وحانات برلين ، واختفت رجالك فى مقابر روسيا ، وكهوف باريس ... وتلاشت أنغامك بين الأرض والسماء ...!

وقفت مذهولة من روعة الذكرى ... ثم قادتنى العجوز ، ومشى أمامنا الحوذى المتنكر . وكان صوته يملك على أمرى ، ويدفعنى نحوه . إنه صوت بائس ... كأنه لا يبالى الدنيا . لقد سمعت أصوات أولئك الذين كانوا يشدهون من أنغامنا الحزينة بين الخيام ... وأصغيت إلى أصوات الذين عذبتهم الثورة ، وآهات من فقدوا الثروة ، ولكنى لم أستمع قط إلى صوت مثل صوت هذا الرجل أبداً

ودقت العجوز باباً حقيراً فدخلناه . ونزع الحوذى رداءه ورماه ، ثم وقف أمامى وقال :

لو كنت أعرفك يا فيرا ... لما أتيت إليك ...

أنا أنيناسي لوليش بروبوف

ياله من رجل ثائر ... ثائر حتى على نفسه ... كان ميت القلب والنفس ... وكانت تبدو على وجهه طلاوة الجمال وسحر الشباب . وكانت عيناه عميقتين صافيتين ، وكان يعيش فى هذه الدار التى يحسبها المرء كوخاً حقيراً ، عيشة رافهة ناعمة ... لايأكل إلا مالذ وطاب ، ولا يلبس إلا الثمين الفاخر ، ولا يعاشر إلا أجمل الفتيات ... فقد كان من أبناء الأشراف الذين يعلمون أنهم إن عاشوا اليوم فسيموتون غداً

وأعانني على نزع ردائى الثمين ... ثم دفع باباً خفياً فى الحائط وقال لى :

— أهلا بك يا فيرا ...

ودخلت إلى بهو متسع كبير ، زين بالدمقس وبالحرير، وفرش بأفخر الطنافس وأجمل الأثاث. وكان فى منتصفه مائدة حفلت بأنواع الخمور وأطايب المأكول ... قل أن تجدها عند أحد فى ذاك الشتاء القاسى ، وهذه المسغبة القاتلة . فدهشت ، وسال لعابى ، وتلمظ فمى ، والتفت لأسأله فنهنى عن الكلام ، ثم أجلسنى وجلس أمامى ، وملأ كأسين من الفودكا الذى لم أشربه منذ عامين ... وأخذت آكل ... يا للحم الطرى ... والسمك اللذيذ ... والفودكا الملهبة ، لقد أكلت كثيراً ياسيدى ... على عجل ... كنت لا أمضغ ولكنى أبتلع ابتلاعاً

فلما فرغت قال لى : أتدرين يافيرا لم أتيت بك ؟

قلت : لا أدرى ياسيدى . قال : من أجل صوتك . فأنا لا أريد أن أمضى عن الدنيا دون أن أتمتع بكل لذيذ فيها . لقد عرفت كل فتيات موسكو وعاشرتهن ولم يبق على إلا سماع صوتك المسكر ... سأسكر يا سيدتى مرتين فى هذه الليلة ... من الفودكا ... ومن صوتك العذب ؟

قلت له : ومن يمينى ياسيدى ؟

قال : أنا

وقام إلى ناى صغير وراح ينفخ فيه ... ورحت أغنى طوال الليل ... حتى ثمل وسقط على الأرض لا يحس ولا يعى

***

استيقظت صباح الغد ، وأنا أحسب أن ماحدث لى فى هذا الكوخ النورى حلماً لولا حرارة الغطاء الناعم المصنوع من جلد الدببة البيضاء . وفكرت فى المساعدة التى سأقدمها لزوجى من هذا الكوخ فلم أجد شيئاً ... أنا أغنى وأشرب وأطرب وهو يئن فى سجنه .. وكيف يتاح لمثل أنيناسى أن ينقذ فاسيلى ... إنه نبيل لو علم به الشيوعيون لما تركوه . ثم قلت لنفسى : ويحك يا فيرا ... إنهم إن يعلموا بك يبقوك فى السجن ولو إلى حين ... هلافررت .

وتركت الكوخ سراً وفى النفس عزم على ألا أعود إليه ... ووجدت شقائى فى غرفتى ... ولم تمض ليال حتى رأيت العجوز تعود فتلح على أن أذهب فى الغد إلى المحل المعهود ... وصفقت نفسى طرباً ... إن صوته ليغوينى أنا التى أغوى ...

وذهبت عشاء اليوم الثانى ... فغنيت له ... ولكن ... مسكين ... إنى لأتمثله الآن يا سادتى ، وأراه وكوب الشمبانيا أمامه ... مطرق الرأس ، كاسف البصر ، ساهم الوجه ، تتساقط على وجنتيه الدموع فتختلط مع ثمالة الكأس ... لقد كان حزيناً ... فسكت ... وقلت : أنيناسى ... ما بك ؟

قال : أغنى بربك يا فيرا ... ولا تفاقى ...
فعدت أغنى ... وعاد يبكى ... حتى ثمل ونام

* * *

ومازلت أتردد على أنيناسى ... حتى كانت النهاية التى كدت أموت فيها ...

كنت معه ذات ليلة نشرب الفودكا ونغنى ... وفجاءة سمعنا لغطاً وضجيجاً .. ثم فاجأنا البولشفيون ورأوا هـذا الكوخ المملوء باليواقيت ، المفروش بالطنافس . لقد كان صاحبي يشرب ... ثم على حين بغتة كسرت كأسه ... وسال ما فيها فوق الغطاء ...

مسكين يا صاحبي ... لقد دنا أجلك !

ودخلوا يرسلون أصواتهم الوحشية وينادون : « ها هو ذا ... أقتلوه ... أقتلوه ... الشعب يموت وهو يشرب ... » وانقضوا عليه يرشقونه بألسنة حداد ويوسعونه لكما وضرباً . وهو صامت ساكت . ثم جرد كبيرهم مدية طويلة وضرب بها عنقه ، فتدحرج رأسه فوق المائدة ... واختلطت دماؤه بالفودكا والشمبانيا ... وطفق المتوحشون يشربون !

أما أنا ... فقد التفوا حولى ... هذا يقبلنى ... وهذا يلكمنى ... وذاك يجس بدنى ... ورابع يصب الخمر فوق رأسى ... ثم ساقونى إلى السجن المظلم الرهيب ...

بقيت فى السجن أياماً لا أرى فيها أحداً ولا أكلم مخلوقاً . وجاءت إلىّ عمتى ذات يوم تخبرنى بأن زوجى قد قتل فى سجنه ، وأن جثته رميت فى الأزقة ، وقد عثر عليها مع جثة أنيناسى

وقفت عند سماع ذلك شاردة اللب زائغة العينين ورحت أبكى ... وفكرت أن أقتل نفسى ولكن .. ولكن ... كيف أموت دون أن أثأر من هؤلاء لزوجى !

لقد هيأ الله لى أسباب ثأرى ... فقد كان حارس السجن رجلا خشناً غليظاً ، ولكنه كان يميل إلىّ ... ويسمعنى كلمات الحب ... وجلست إلى جانبه ذات ليلة ... أستمع إلى أحاديثه ومغامراته وفجاءة علمت أنه قاتل زوجى .. فلم أظهر له ما يجلب له الريبة فىّ ... و ...

وأشعلت فيرا لفافة وأرسلت دخانها الأسود إلى الفضاء ... وهى تتأوه وتنظر إلينا نظرات حزينة قلت لها : « ثم ماذا فعلت »

— هه ... انتقمت ... راودنى عن نفسى .. وكان سريره إلى جانب باب السجن فاضطجعت معه فيه ... وقد ثمل ... ثم أخرجت خنجرى الذى أخذته ذات يوم من عمتى ، وغرسته فى عنقه ... وجلست فوقه ... فاستغاث وصاح فلم يجبه إلا الليل البهيم !

لم أستطع أن أزيل الدم الذى تسرب من عنقه إلى صدرى وجسمى ... إذ سرقت المفاتيح . وفررت ولقد لحقوا بى يريدون أن يقتلونى ولكنهم لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا .. وماذا أريد من الحياة .. أو أطمع بعد ذلك ... لقد عرفت زوجى فأخلصت له ... وثأرت ممن قتله ...

إنى أعيش الآن يا سادة عيشة لا تتاح لكثير من النساء .. ولكنى لم أعرف طعم السعادة بعد أن تولى زوجى ... إن الزوج هو كل شىء فى حياة المرأة ... فاذا غاب عنها ذبلت سعادتها

لقد مضى وخلف لى زفرات أصعدها كلما مثلته لخاطرى ... ما أحسبها إلا أنها قاتلتى يوماً من الأيام

صموئيل عبد السيد